حسن الخطيب[1] | Hasan Alkhatib

التحولات البنيوية ليهود سوريا في القرن التاسع عشر

The Structural Transformations of Syrian Jews in the Nineteenth Century

ملخص

ظلت حياة اليهود في سوريا في ظل الحضارة الإسلامية هادئة نسبيًا، إذ إن نظام الذمة في الحكم الإسلامي الذي ينظم علاقة الحاكم المسلم بالمحكومين غير المسلمين نظم حقوق الأقليات غير المسلمة وواجباتها. لكن حياة اليهود في سوريا شهدت تحولات بنيوية منذ القرن التاسع عشر، وذلك تحت تأثير عاملين مهمين هما التدخل الأوروبي في شؤون الدولة العثمانية، والتنظيمات العثمانية التي سعت لإنهاء نظام الذمة الإسلامي، والتحول إلى نظام المواطنة الحديث على النمط الأوروبي. هذه الورقة تبحث في التحولات البنيوية التي شهدتها المجتمعات اليهودية في سوريا في القرن التاسع عشر.

كلمات مفتاحية: تاريخ، يهود، سوريا، الدولة العثمانية، التنظيمات.

Abstract

Jews' life in Syria remained relatively peaceful for centuries under Islamic civilization, as the dhimma system of Islamic rule, which regulates the relationship between the Muslim ruler and the non-Muslim subjects, organised the rights and duties of non-Muslim minorities. However, the life of Jews in Syria witnessed structural transformations since the nineteenth century under the influence of two important factors: European intervention in the affairs of the Ottoman empire, and the Ottoman reforms (Tanzimat) that sought to end the Islamic dhimma system and replace it with a modern citizenship system on the European model. This paper examines the structural transformations that Jewish communities in Syria underwent in the nineteenth century.

Keywords: History, Jews, Syria, Othoman empire, Tanzimat.

(1) كاتب وباحث سوري. hasan.khatib@windowslive.com

أولًا: مقدمة

عاش اليهود في سوريا منذ القرن السادس قبل الميلاد، وعاصروا الحضارات التي مرت على جغرافيتها، بدءًا من الحضارة الرومانية وانتهاءً بالحضارة العثمانية، وعاشوا في ظل الاحتلال الفرنسي وفي عهد الدولة الوطنية ما بعد الاستقلال أيضًا. وقد ظلت حياة اليهود هادئة نسبيًا قرونًا عدة في ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة على المنطقة بدءًا بالدولة الأموية وحتى عهد الدولة العثمانية. فاليهود بوصفهم أقلية سعوا سعيًا أساسيًا للمحافظة على وجودهم بوصفهم جماعة أقلوية في سوريا، ولم يثوروا ضد السلطات الحاكمة أو يعترضوا على قوانينها. إذ شكل اليهود أقلية صغيرة جدًا مقارنة بغيرهم من الأقليات، وعاشوا في مراكز المدن إلى جانب الأغلبية السنية والأقلية المسيحية، ومن ثم، فإنهم لم يشكلوا كتلة عددية كبيرة، ولم يعيشوا جماعيًا في مناطق مستقلة بعيدة عن مراكز المدن تمكنهم من التمرد على العثمانيين، كما في حالة العلويين والدروز على سبيل المثال. وكانت القوانين الإسلامية التي حكمت علاقة السلطة باليهود تتناسب مع التلمود اليهودي الذي يرى أن ثمة ثلاثة عهود بين اليهود والله، اليهود والشعوب التي يعيشون في ظلها في الشتات. فقد تعهد اليهود لله بألا يهاجروا إلى الأرض المقدسة؛ فلسطين، من تلقاء أنفسهم، وأن ينتظروا عودة المسيح الذي سيعود بهم إلى المدن المقدسة، وألا يثوروا على الحكام والملوك في البلدان التي يعيشون فيها في الشتات، وفي مقابل ذلك لا يمارس هؤلاء الحكام والملوك كثيرًا من القمع ضد اليهود. وقد كانت رؤية التلمود الحياتية هذه تتفق مع نظام أهل الذمة المتبع في الإسلام الذي ينص على أن يحصل الذميون (اليهود والنصارى) على الأمان والاستقلالية في شؤونهم الدينية والاجتماعية، مقابل أن يدفعوا الجزية، وأن يقبلوا بتفوق المسلمين عليهم.

لكن حياة اليهود في سوريا بدأت تشهد تحولات كبرى في أواخر عهد الدولة العثمانية، وأطلق على هذه التحولات مصطلح تحولات بنيوية لأنها تحولات داخلية في داخل المجتمع اليهودي، وخارجية أثرت في المجتمع السوري كله. فقد تحول اليهود من محض أقلية دينية مهمشة إلى لاعب أساسٍ في الحياة الاقتصادية، وذلك أثر في الحياة السياسية والاجتماعية في سوريا. وهذه التحولات البنيوية في حياة يهود سوريا يمكن ردها بصورة أساس إلى حدثين مهمين في القرن التاسع عشر، أولهما مراسيم التنظيمات العثمانية، وثانيهما النشاط التجاري ليهود أوروبا في حلب ودمشق فقد كان التجار اليهود الأوروبيون مدعومين من سفارات وقنصليات الدول الأوروبية المتفوقة على الدولة العثمانية في تلك المرحلة. حيث إنه منذ بدايات القرن الثامن عشر لم تعد العلاقة بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطوريات الأوروبية قائمة على التكافؤ -كما كانت من قبل- إنما بدأ يظهر أثر التفوق الأوروبي اقتصاديًا وعسكريًا وعلميًا وإداريًا. لقد كان القرن الثامن عشر قرن التحول إلى عالم حديث لا مكان فيه للإمبراطوريات الكبرى بشكلها القديم. ذلك ما أنذر السلطة العثمانية بضرورة تحديث الدولة على النمط الأوروبي[2]. إلا أن هذا التحديث في الإمبراطورية العثمانية كان عسيرًا لعوامل خارجية أهمها تدخل الدول الأوروبية في شؤون السلطة العثمانية تدخلًا كبيرًا، وحصولها على امتيازات مهمة لتجارها وبعثاتها الدبلوماسية والعلمية ولأبناء الأقليات الدينية غير المسلمة على حساب التجار المحليين والرعايا المسلمين؛ وعوامل إدارية، منها الضعف العسكري والاقتصادي الذي انتهى بإعلان إفلاس السلطة العثمانية عام 1875. وعوامل اجتماعية تجلت في رفض المجتمع المسلم جوهر المواطنة القائم على المساواة مع أبناء الأقليات غير المسلمة بعد قرون من الشعور بالتفوق عليها، ورفض الأقليات غير المسلمة نفسها فكرة المواطنة لكونها تشكل التزامات لم تكن موجودة سابقًا مثل بدل الخدمة العسكرية. تبحث هذه الدراسة في التحولات البنيوية في حياة اليهود في سوريا في ظل الدولة العثمانية في مرحلة ما قبل التدخل الأوروبي والتنظيمات العثمانية وما بعدها.

أتبع في هذه الدراسة نهج التحليل التاريخي، حيث أتناول بداية الأصول العرقية للمجتمعات اليهودية التي عاشت في سوريا، ثم التنظيمات العثمانية في القرن التاسع عشر، وسأبحث في أثر التدخل الأوروبي في شؤون الدولة العثمانية، والتنظيمات في الحياة الاقتصادية والدينية

(2) Yaron Harel, *Syrian Jewry in Transition: 1840-1880*, Dena Ordan (Trans.), (Liverpool: Liverpool University Press, 2010), p.2.

والاجتماعية لليهود. تأتي أهمية هذه الدراسة من ندرة البحوث الأكاديمية التي تتناول حياة اليهود في سوريا في العصور الحديثة، وكيف أثروا وتأثروا بالتحولات الكبرى التي شهدتها الدولة العثمانية في أواخر عهدها. أما عن مصادر هذه الدراسة، فسأعتمد على مصادر عدة، منها كتاب "يهود الشام في العصر العثماني" للمؤرخ السوري أكرم حسن العلبي، وكتاب "يهود دمشق" للباحث السوري يوسف نعيسة، وكتاب "يهود سوريا في مرحلة انتقالية 1840-1880" للمؤرخ الإسرائيلي هارئيل يارون. لكن قبل ذلك كله لا بد لي أن أنبّه إلى بعض الإشكاليات التي تواجه الباحث في الدراسات اليهودية في ما يتعلق باليهود في العالم العربي عمومًا، واليهود في سوريا خصوصًا عند البحث في المصادر والمراجع.

إشكالية المصادر

إن معظم الكتب التي تؤرخ لحياة اليهود في سوريا كُتب بعد اندلاع الصراع العربي الصهيوني، والدراسات الأكاديمية التي تتناول حياة اليهود في سوريا في التاريخ الحديث قليلة جدًا، وملونة في أحيان كثيرة -بصورة أو بأخرى- بلون من ألوان الصراع سواءً على الجانب الإسرائيلي أم على الجانب العربي. وهذا ما يجعل مهمة الباحث أصعب، وأعقد، إذ يجب عليه العودة دومًا إلى مراجع قريبة جدًا من الحقبة التاريخية التي يكتب عنها وتعالج الموضوع ذاته، ويجب عليه الرجوع إلى مراجع أخرى عن الحقب التاريخية التي يعالج فيها مسألة حياة اليهود في سوريا، بمعزل عن حياة اليهود أنفسهم، وذلك بغرض نقد مراجعه الأصلية، وتمحيصها. وهذا ما فعلت خلال كتابة هذه الدراسة، إذ وجبت العودة إلى مراجع أكاديمية عن تاريخ سوريا في القرن التاسع عشر لا تتناول حياة اليهود في سوريا تناولًا مباشرًا، مثل "كتاب الشرق الأوسط الحديث" الذي حرره ألبرت حوراني وفيليب خوري وماري ويلسون، وكتاب "بلاد الشام مطلع القرن العشرين" الذي ألفه وجيه كوثراني.

أما عن مسألة أثر الصراع العربي الصهيوني في الكتب والأوراق الأكاديمية أورد بعض الأمثلة التي واجهتني خلال كتابة هذا البحث، فأورد بعض المآخذ على كتاب "يهود دمشق الشام" للصحافي والأديب السوري شمس الدين العجلاني، وكتاب "يهود سوريا في مرحلة انتقالية 1840-1880" للمؤرخ الإسرائيلي هارئيل يارون:

1. يذكر شمس الدين العجلاني بأن: "السلطة العثمانية تعاطفت مع اليهود الفارين من إسبانيا منذ نهايات القرن الخامس عشر، ففتحت لهم البلاد كلها ومنحتهم المواطنة كاملة"[3]. إن مسألة تعاطف السلطة العثمانية مسألة لا يمكن الجزم فيها كما فعل العجلاني، فالسلطة العثمانية لم تمنع أحدًا من الإقامة على أراضيها بسبب دينه، ولم تشجع أحدًا على ذلك، وإن الاستدلال على تعاطف الدولة العثمانية مع اليهود من خلال السماح للفارين من إسبانيا بالإقامة على أراضيها استدلال خاطئ، لا يجب الاعتداد به. وقول العجلاني بأن السلطة العثمانية منحت اليهود مواطنة كاملة غير دقيق، وذلك لأن العلاقة بين السلطة العثمانية والشعوب التي تعيش على أراضيها كانت علاقة رعوية، أي إن الجميع كانوا رعية لدى السلطة لا مواطنين، وشأن السلطة العثمانية في ذلك شأن بقية الإمبراطوريات التي سادت العالم في تلك الحقبة هذا من جهة. أما من جهة ثانية، فإن السلطة العثمانية كانت تتبع في حكمها للأقليات غير المسلمة بمن فيهم اليهود نظام الملة، وهو نظام يضع رعايا الدولة من اليهود وغيرهم من غير المسلمين في درجة أقل من رعاياها المسلمين.

ويذكر العجلاني أيضًا بأنه: "قبل عامي 1947-1948 كان من المتعذر الفصل بين الطائفة اليهودية وأهل البلاد كون سورية تتمتع على مر العصور بالتسامح الديني... إن الطائفة الموسوية كانت جزءًا من نسيج المجتمع السوري"[4]. وهذه مغالطة أخرى يقع فيها العجلاني، إذ يرى بأنه لم يكن من الممكن الفصل بين اليهود وبقية أبناء المجتمع السوري، ولكنه في الوقت نفسه يمايز بين اليهود الذين يعدّهم غرباء، وبقية أبناء المجتمع، إذ يطلق عليهم لفظ (أهل البلاد)، ثم يجزم بفكرة رومانسية شعبية بأن سورية اتسمت على مر العصور بالتسامح الديني، وهذا كلام غير دقيق أيضًا، فسورية مثلها مثل أي بلد آخر في العالم شهد تاريخها محطات هدوء واستقرار، وشهد أيضًا فترات تسامح وفترات تعصب.

(3) شمس الدين العجلاني، يهود دمشق الشام، ط2، (دمشق: مكتبة العلبي، 2008)، ص49.

(4) المرجع نفسه، ص149.

يورد العجلاني بعض الخرافات الشعبية عن اليهود، ومنها أن اليهود لديهم طقس ديني لا يتم إلا بتناول خبز مقدس معجون بدم طفل أو شاب مسيحي طاهر. ويأخذ هذه الرواية عن كتاب "اليهودي التلمودي" الذي ألفه اللاهوتي المسيحي في ألمانيا أوغست روهلينغ عام 1871، ونقله إلى العربية يوسف نصر الله سنة 1898 بعنوان "الكنز المرصود في قواعد التلمود"، وهو كتاب غير موثوق. فقد قضت محكمة فيينا عام 1885 بعد طلب خبرة مجموعة من جمعية المستشرقين الألمان بأن روهلينغ لا يعرف العبرية، ولم يقرأ التلمود على الإطلاق بل استقى معلوماته من كتب مرتدّين، أمثال أهرون بريمان[5]. ويفكك الباحث الفلسطيني صقر أبو فخر هذه الخرافة بالقول: "المعروف أن التوراة والتلمود يحظران على اليهودي في الحياة اليومية، وفي أثناء الاحتفال بعيد الفصح (بيساح بالعبرية)، ملامسة أي جسد ميت. واليهود كالمسلمين يعدّون الدم نجسًا، ولا يجوز مسّه، لا في احتفالات الفصح، ولا في بعض الأعياد الأخرى، ولا يجوز أكله في سائر الحالات، يهوديًا أكان هذا الدم أم غير يهودي. أما فطير الفصح اليهودي، فلا يدخل فيه أي شيء حتى الخمائر. وسفر التكوين (4:9) يوضح هذا الأمر تمامًا فيذكر: غير أن لحمًا بحياته (= بدمه) لا تأكلوه. ومثله يذكر سفر التثنية (23:12): احترز أن لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس[6]".

2. أما على الجانب الإسرائيلي، فترى الباحثة الإسرائيلية العراقية إيلا حبيبة شوحط بأن الصهيونية تقصدت تهميش تاريخ اليهود العرب في معرض كتابة التاريخ اليهودي، فاعتمدت المركزية الأوروبية في كتابة تاريخ اليهود وتدريسه في إسرائيل، وذلك لأسباب أيديولوجية بقصد إضفاء سردية المظلومية المطلقة التي يحظى بها تاريخ اليهود في أوروبا على تاريخ اليهود في العالم العربي والإسلامي[7]، إذ إن تاريخ اليهود في العالم الغربي يتسم بالقمع والتعصب بخلاف تاريخ اليهود في العالم العربي والإسلامي الذي يتسم بالتسامح النسبي. وبالنسبة إلى تاريخ اليهود في سوريا خلال الحكم العثماني، فإن سجلات محاكم دمشق تزخر بشواهد تؤكد كلام شوحط عن التسامح الذي عاش في ظله اليهود خلال الحكم الإسلامي، فضلًا على التعايش الاجتماعي بين اليهود والمسلمين قبل التدخل الأوروبي في المنطقة. ومن الشواهد على ذلك أنه في عام 1787 وكلّت امرأة يهودية تُدعى مريم بنت يعقوب الصراف رجلًا مسلمًا يدعى حسن بن محمد الشعّار بقبض ما يخصها من تركة أبيها، وثبتت هذه الوكالة أمام القاضي مصطفى الرومي[8]. وفي قضية أخرى عام 1798 فسخ القاضي علي أفندي عقد بيع عُقِدَ بالإكراه حينما ادعى اليهودي ياقوت بن المعلم يوسف بأن متولي السنانية في دمشق أحمد آغا بن محمد آغا قد هدده بالقتل ما لم يبعه بستانًا يملكه في أراضي القابون، وشهد مع المدعي اليهودي شاهدان مسلمان على صحة ما يقول، فأعلن القاضي بطلان عقد البيع[9].

وعلى الرغم من ظهور المدرسة التاريخية الجديدة منذ ثمانينيات القرن العشرين في إسرائيل التي تنتقد عملية التأريخ الصهيوني لتاريخ اليهود في الشرق، نرى أن المؤرخين الجدد ما يزالون متأثرين بالسرد الصهيوني، فعلى سبيل المثال يكتفي يارون هارئيل في كتابه عن تاريخ يهود سوريا بشهادة القنصل البريطاني على أحداث مذبحة المسيحيين في دمشق التي راح ضحيتها أكثر من خمسة آلاف مسيحي عام 1860. وبحسب شهادة القنصل البريطاني، فإن يهودًا كانوا من بين ضحايا المذبحة[10]. وشهادة القنصل البريطاني تتعارض مع شهادة القنصل اليوناني في دمشق، فبحسب المؤرخ السوري سامي مروان المبيض في كتابه الذي صدر مؤخرًا بعنوان "نكبة نصارى الشام أهل ذمة السلطنة وانتفاضة 1860"، فإن القنصل اليوناني في دمشق كان قد ذكر بأنه في ظل الفوضى العارمة في دمشق، لم يصب يهودي واحد بأذى[11]. وأيضًا تؤكد إيرما فاديبفا في كتابها "اليهود في الإمبراطورية العثمانية" بأن يهوديًا واحدًا لم يُصب بأذى من جراء المذبحة[12]. ولا بد للقارئ عند المقارنة

(5) صقر أبو فخر، "تفكيك خرافة فطير صهيون"، **العربي الجديد**، (2015/10/03).

(6) المرجع نفسه.

(7) Ella Shohat, "The Invention of The Mizrahim", **Journal of Palestine Studies,** Vol. 29, (Autumn, 1999), p.6.

(8) أكرم حسن العلبي، **يهود الشام في العصر العثماني**، ط1، (دمشق: وزارة الثقافة، 2011)، ص146.

(9) المرجع نفسه، ص161.

(10) Harel, p.122.

(11) سامي المبيض، **نكبة نصارى الشام أهل ذمة السلطة و انتفاضة 1860**، ط1، (بيروت/ لبنان: دار رياض الريس للنشر، 2021)، ص118-119.

(12) إيرما فاديبفا، **اليهود في الإمبراطورية العثمانية**، أنور إبراهيم (مترجمًا)، ط1، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2023)، ص361.

بين شهادتي القنصل البريطاني ونظيره اليوناني أن يضعهما في سياقهما التاريخي، ففي ظل التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا في القرن التاسع عشر كانت فرنسا تتذرع بحجة حماية الأقلية الكاثوليكية للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، أما بريطانيا البروتستانتية، فكانت تتخذ من حماية اليهود ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية لعدم وجود بروتستانت في الشرق في تلك الحقبة. وعند الحديث عن حدث مأسوي بهذا الحجم في التاريخ السوري يجب على الباحث ألا يستبعد أي شهادة، إلا أنه من الممكن ترجيح شهادة القنصل اليوناني، فلم يكن لبلاده -التي لم تكن على قوة تنافس الاستعمار البريطاني والفرنسي في المنطقة- مصلحة في أن يروي شهادة مغايرة لما حدث، بخلاف القنصل البريطاني.

ويذكر هارئيل بأن اليهود في سوريا لم يعملوا في الزراعة، لأنه لم يكن يُسمح للأقليات غير المسلمة بتملك الأراضي[13]. إلا أن هذا الكلام غير دقيق، فبالعودة إلى سجلات محاكم دمشق خلال الحكم العثماني نرى عددًا من الدعاوى أو العقود محلها أراضٍ مالكوها يهود. على سبيل المثال في عام 1762 ورد أمام القاضي محمد الشافعي عقد تثبيت إيجار مزرعة لمدة ثلاث سنوات، المزرعة مملوكة لليهودي يوسف بن موسى، ويستأجرها المسلم محمد بن عبد الله[14].

ثانيًا: المجتمعات اليهودية في سوريا

عاشت في سوريا حتى بدايات القرن التاسع عشر مجموعتان أساسيتان من اليهود: المجموعة الأولى اليهود الذين قدمت إلى سوريا عبر هجرات متتالية أقدمها في القرن السادس قبل الميلاد، ويُشار إلى يهود هذه المجموعة باسم المستعربين. وهؤلاء ذابوا في المجتمعات المحلية، وتكلموا العربية إلى جانب بعض العبارات باللغة العبرية؛ أما المجموعة الثانية، فتضم اليهود السفارديم الذين طُردوا من إسبانيا والبرتغال في مطلع القرن السادس عشر، فلجؤوا إلى أراضي الدولة العثمانية. إذ سمح السلاطين العثمانيون لليهود المطرودين من الدول الأوروبية بالدخول إلى بلادهم من دون أي قيود سوى ما يحدده الإسلام طبقًا لنظام الذمّة المعمول به في أراضي الدولة العثمانية آنذاك[15]. وقد تحدث اليهود السفارديم في ما بينهم لغة (اللادينو)، وحافظوا عليها حتى بعد اندماجهم باليهود المستعربين، إلا أنهم أتقنوا العربية إلى جانب (اللادينو)، فأصبحت العربية لغة مشتركة بين اليهود المستعربين والسفارديم، وأصبحوا مجتمعًا يهوديًا متجانسًا عرقيًا في سوريا[16].

منذ بدايات القرن الثامن عشر بدأ التجار الأوروبيون ينشطون نشاطًا كبيرًا وواسعًا في حلب التي كانت مركزًا تجاريًا مهمًا بين الشرق والغرب في تلك الحقبة، وانقسم التجار الأوروبيون دينيًا إلى مسيحيين ويهود. لم تكن حلب بالنسبة إلى التجار اليهود في البداية أكثر من محض مدينة أعمال، فلم يتعلم أحد منهم اللغة المحلية، ولم يخضعوا للقوانين العثمانية التي تحكم الأقليات غير المسلمة، وذلك لأنهم لم ينووا الاستقرار في الشرق، ولم يجلب أحد من التجار عائلته معه. وفي ثلاثينيات القرن الثامن عشر قرر التاجر الإيطالي هلال بن صموئيل الاستقرار نهائيًا في حلب، فجلب عائلته، وتبعه بعض التجار اليهود في ذلك، لتبدأ مجموعة جديدة من اليهود الأوروبيين الاستيطان في سوريا[17].

إن وجود التجار الأوروبيين اليهود، خصوصًا في حلب، فتح فرص عمل لليهود المحليين الذين عملوا في الترجمة والمحاسبة والمرافقة والمنازل. وقد كان التجار اليهود يفضلون أن يستأجروا عمالًا وموظفين محليين من أبناء دينهم للعمل معهم، وكذلك فعل التجار المسيحيون. وبدأ التجار اليهود الأوروبيون بالتجمع في أماكن خاصة بعيدة عن المجتمعات المحلية، ونشأت تدريجيًا مستعمرات للتجار الأوروبيين اليهود إلى جانب مستعمرات التجار الأوروبيين المسيحيين. اقتصر التواصل بين التجار اليهود الأوروبيين واليهود المحليين في البداية على النشاط التجاري، والعمل، إلى جانب النشاط الديني. ثم افتتح التجار اليهود مدارس حديثة لتعليم أبنائهم فيها، وذلك على غرار المدارس التي افتتحها التجار المسيحيون. واستقبلت هذه المدارس لاحقًا طلابًا من أبناء اليهود المحليين. وفي مرحلة لاحقة بدأ بعض

(13) Harel, p.54.

(14) العلبي، ص109.

(15) المرجع نفسه، ص22-23.

(16) يوسف نعيسة، يهود دمشق، ط1، (دمشق: دار المعرفة، 1988)، ص7-8.

(17). Harel, p.9.

التجار اليهود الأوروبيين الاستقرار في دمشق أيضًا[18]. وفي منتصف القرن الثامن عشر حاول الحاخام الأكبر في سوريا سلمون لينادو أن يجبر اليهود الأوروبيين على الانضمام إلى الطائفة المحلية، وأن يقع عليهم ما يقع على اليهود المحليين من التزامات مالية، من مثل دفع الضرائب للباب العالي، والتزامات اجتماعية تجلت بصورة رئيسة في التخلي عن بعض العادات الأوروبية التي تحلى بها اليهود في أوروبا، من مثل لباس النساء اليهوديات الأوروبيات الذي يختلف عن لباس نساء يهود سوريا[19].

ونتيجة للوجود الأوروبي اليهودي منذ القرن الثامن عشر في حلب، والتأثير الاقتصادي الكبير لهم، بدأ اليهود السفارديم الذين هاجروا إلى أراضي الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر من إسبانيا والبرتغال بإعادة تعريف أنفسهم على أنهم يهود أوروبيون، وليسوا محليين سوريين من مثل اليهود المستعربين الذين عاشوا في سوريا قبلهم، وذلك للحصول على امتيازات اليهود الأوروبيين. ومن ثم أصبحت في سوريا ثلاث هويات يهودية عرقية مع بدايات القرن التاسع عشر؛ اليهود العرب، واليهود الأوروبيون، واليهود السفارديم. وقد وفر الازدهار الاقتصادي للتجارة اليهودية الأوروبية في دمشق وحلب فرص عمل لليهود من دول أخرى، وشجع يهود أوروبا الشرقية، خصوصًا من روسيا وبولندا على الهجرة إلى سوريا للعمل. وفي 1847 لجأت عشرات العائلات اليهودية من الجزائر إلى سوريا هربًا من الاحتلال الفرنسي برفقة عبد القادر الجزائري، فأصبح المجتمع اليهودي في سوريا متنوعًا تنوعًا كبيرًا منذ منتصف القرن التاسع عشر[20]. وبحسب صموئيل أتنجر، فإن عدد اليهود في حلب في القرن التاسع عشر يُقدر بعشرة آلاف يهودي، وفي دمشق بين ثلاثة وخمسة آلاف يهودي[21]. أما يوسف نعيسة، فيُقدر عدد اليهود في دمشق في أواخر القرن الثامن عشر بخمسة عشر ألف يهودي، وينبه إلى صعوبة الوصول إلى أرقام صحيحة، وذلك لعدم وجود إحصاءات دقيقة للسكان في تلك المدة، ولأن عادات الدمشقيين وتقاليدهم كانت تقف حائلًا أمام إحصاء النساء[22].

ثالثًا: التنظيمات العثمانية

كانت العلاقة بين الدولة العثمانية ومنافسيها من الدول المسيحية الأوروبية قائمة على التكافؤ حتى القرن الثامن عشر، ومنذ منتصف هذا القرن ظهر أثر التفوق الأوروبي في الدولة العثمانية في المجالات الاقتصادية والعسكرية والعلمية والإدارية. وبدأت هذه الدول الأجنبية تتدخل تدخلًا مباشرًا عبر سفاراتها وقنصلياتها في شؤون الدولة العثمانية، خصوصًا إنكلترا وفرنسا وروسيا. ومنذ بدايات القرن التاسع عشر صارت الدول الأوروبية تضغط على الدولة العثمانية للتحول إلى الصيغة التي تخدم مصالحها السياسية ومصالح رعاياها خصوصًا التجار منهم. فأصبح التجار الأوروبيون ينعمون بالحرية التجارية من دون أن يتحملوا ضرائب باهظة أو أعباء ثقيلة، وصار بوسعهم أن يوسعوا سوق الاستيراد، وأن يجمعوا المواد الأولية للتصدير، وأن يحددوا للمنتجين نوعية إنتاجهم، من دون أي مراعاة لاحتياجات السوق الداخلية والمستهلك المحلي. وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر أصبح هناك للمرة الأولى وكلاء للقناصل الأوروبيين من رعايا الدولة العثمانية، ويتمتعون بالحماية ذاتها التي يتمتع بها المواطن الأوروبي داخل أراضي الدولة العثمانية. لاحقًا أصبحت هناك طوائف بأكملها تحت الحماية الأوروبية، فقد وسعت فرنسا نفوذها لتشمل حماية الكاثوليك في الشرق، وروسيا لحماية الأرثوذكس أما بريطانيا التي لم يكن لها محميون واضحون، فقد بدأت بفتح علاقات مع اليهود والدروز لإيجاد أقليات معينة تبرر تدخلها في أراضي الدولة العثمانية بحجة حمايتهم في مواجهة فرنسا وروسيا[23].

وأدى ضعف الدولة العثمانية إلى نشوب الثورة اليونانية، وفقدان الدولة أجزاء من أراضيها، وتمرد محمد علي في مصر، وتزايد تدخل القوى الأوروبية في شؤون الدولة

(18) المرجع نفسه، ص13-14.

(19) فادييفا، ص349.

(20). Harel, p.29.

(21) صموئيل أتنجر، **اليهود في البلدان الإسلامية**، جمال الرفاعي (مترجمًا)، ط1، (الكويت: عالم المعرفة، 1995)، ص170.

(22) نعيسة، ص9.

(23) ألبرت حوراني وفيليب خوري وماري ويلسون، **الشرق الأوسط الحديث**، أسعد صقر (مترجمًا)، ط1، (القاهرة: مركز مدارات للأبحاث والنشر، 2016)، ص155.

العثمانية[24]. نتيجة لذلك، وبدافع من بعض الشخصيات العثمانية في السلطة والجيش، انتهجت الدولة العثمانية حركة إصلاحات، عُرفت آنذاك بالتنظيمات، بدأت فعليًا بمبادرات في عهد السلطان سليم الثالث تهدف إلى تحديث الدولة العثمانية على النمط الأوروبي[25]. وقد احتلت المؤسسة العسكرية قائمة الاهتمامات، وذلك لما آلت إليه أوضاع الجيوش العثمانية التقليدية من تردٍ وضعف في مقابل الجيوش الأوروبية النظامية التي تتمتع بحسن التدريب والتنظيم والأسلحة الحديثة[26]. ثم امتدت حركة الإصلاحات لتشمل المؤسسة الإدارية والحياة الاجتماعية، وذلك بإلغاء عهد الذمة الذي كان يميز بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والواجبات، واستبدال نظام المواطنة القائم على فكرة المواطنة التي تشكل أساس المجتمع المدني في أوروبا به[27].

ولم تحقق التنظيمات الأهداف المرجوة منها في نهاية المطاف، وذلك لأن عملية التغيير خلال فترة التنظيمات كانت شيئًا لم يفهمه سكان الإمبراطورية العثمانية في البداية، إذ إنها أتت من الأعلى إلى الأسفل[28]. كما كان الهدف من الإصلاحات تأسيس إدارة موحدة الشكل وتأسيس مركزية ترتبط مباشرة بكل مواطن وتعمل تبعًا لمبادئها الخاصة في العدالة وتطبق بالتساوي على الجميع. وهذه الإصلاحات تحققت جزئيًا فقط وذلك لأن عددًا من الإصلاحات جرى تحريف نتائجها لتتناسب مع إرادة الحاكم المطلق الذي يرغب في تطبيق الأفكار الجديدة بالطريقة التي تؤدي إلى تقوية مركزه لا زعزعة نفوذه عبر اقتسام السلطة مع المواطنين[29]. علاوة على أن العقيدة العثمانية الجديدة التي رأت أن الوطن واحد للمسلمين وغير المسلمين اصطدمت بالعقيدة الإسلامية التقليدية التي رأت أن الوطن للمسلمين وأن غير المسلمين هم أجانب يتمتعون بقدر نسبي من التسامح بشرط خضوعهم التام للسلطات المسلمة[30]. وعلى الجانب الآخر فإن الاصلاحات اصطدمت أيضًا بعدم رغبة الأقليات في التخلي عن الامتيازات الأجنبية التي تعفيها من كثير من أعباء المواطنة المحلية للدولة العثمانية.

رابعًا: الحياة الاقتصادية لليهود في سوريا

لقد برع يهود الدولة العثمانية في المعاملات المالية والتجارية، فاليهود لم يعيشوا في الأرياف، ولم يعملوا في الزراعة من جهة، ومن جهة أخرى فقد حُظر على الأقليات غير المسلمة تقلد الوظائف الحكومية والعسكرية، ثم إن الأتراك العثمانيين الذين كانوا في مراكز القوة والسلطة، كانوا أصحاب ذهنية عسكرية تنظر إلى الأعمال المالية بدونية. أما بقية المسلمين من غير الأتراك، فلم تعمل بالربا الذي هو محرم بمقتضى الشريعة الإسلامية، ما قلل من حجم معاملاتهم المالية وفرص مضاعفة ثرواتهم[31]. وهذا ما فتح الفرص المالية والتجارية بصورة واسعة أمام الأقليات غير المسلمة في الدولة العثمانية، وفي مقدمتهم اليهود. عاش اليهود في سوريا غالبًا في مراكز المدن، وبصورة قليلة جدًا في الأرياف القريبة منها. وقد عاشوا في مدن مثل حماة وإدلب ودرعا إلا أن مدينتي دمشق وحلب شكلتا المركز الاجتماعي والديني والاقتصادي لليهود في سوريا منذ القدم. وقد لعب النشاط الاقتصادي لليهود في حلب ودمشق دورًا مهمًا في رسم مختلف ملامح حياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية، وعلاقاتهم مع أبناء الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية. في هذا القسم أناقش عاملين مهمَين أثرا كثيرًا في الحياة الاقتصادية لليهود، وهما التجارة الأوروبية، والتدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية.

1. قبل التدخل الأجنبي

اختلفت حياة اليهود اقتصاديًا في دمشق عن حياتهم في حلب. في دمشق كان ثمة أقلية يهودية ثرية جدًا وأغلبية فقيرة فقرًا مدقعًا، أما الطبقة الوسطى، فبالكاد كانت

(24) أتنجر، ص193.

(25) المرجع نفسه، ص 41.

(26) وجيه كوثراني، "التنظيمات العثمانية والدستور: بواكير الفكر الدستوري نصًا وتطبيقًا ومفهومًا"، ع: 3، **مجلة تبين**، (2013)، ص5.

(27) المرجع نفسه، ص12.

(28) حوراني وخوري وويلسون، ص128.

(29) المرجع نفسه، ص148.

(30) فاديبفا، ص27.

(31) المرجع نفسه، ص32.

مرئية. وقد كان يهود دمشق الأثرياء -وفي مقدمتهم عائلتا فارحي وهراري- يتباهون بثرائهم ومظاهر حياتهم، فكانوا يرتدون دومًا ملابس فاخرة، ويتزينون بالذهب والأحجار الكريمة الغالية، وسكنوا في بيوت كبيرة ومرتبة جدًا زُينت بالرخام. وكانت بيوت يهود دمشق الأثرياء الرخامية محط إعجاب الرحالة الأوروبيين الذين كانوا يتحدثون عنها في الغرب. وقد عُرف في دمشق قصور آل فارحي وقصر شمعايا، وقصر آل عنبر وبيت شطاح وبيت الجليلاتي وبيت لزبونا، وكان قصر مراد فارحي في دمشق يحتوي على مكتبة يهودية ضخمة، وقد ترك مراد فارحي هذه المكتبة مفتوحة ليهود دمشق واليهود الذين يزورون المدينة جميعهم. وامتلك روفائيل فارحي قصرًا في دمشق وصفه أحد المستشرقين بأنه أشبه بقرية صغيرة حيث يسكن فيه حوالى سبعين شخصًا، ويحتوي على مكتبة غنية بالكتب العبرية[32].

ترك هذا التباهي بمظاهر الثراء انطباعًا عامًا لدى الناس بأن كل اليهود أغنياء وأصحاب مال وسلطة، وذلك كان يذكي مشاعر الغيرة لدى المسلمين والمسيحيين في دمشق[33]. وقد عمل أثرياء يهود دمشق معظمهم في الصرافة وتجارة العملة، وكان التجار اليهود في منتصف القرن الثامن عشر من أغنى تجار المدينة. وكان الصيارفة اليهود يتحكمون في مالية دمشق، حتى إن التاجر اليهودي الدمشقي سليمان فايصي كان يسلف الحكومة، وكان يسمى مجازًا وزير المالية[34].

أما في حلب، فقد كان ثمة أقلية ثرية جدًا، وأقلية فقيرة جدًا، وأغلبية يهودية تنتمي إلى الطبقة الوسطى. ولم يكن من عادة أثرياء حلب اليهود التباهي بالثروة، كما كان يفعل اليهود الدمشقيون الأثرياء. ولم يكن هناك حظر على اليهود من ممارسة مهن معينة كالحظر الذي كان يعانيه اليهود في أوروبا. فقد عمل اليهود في الأعمال كلها تقريبًا، في التجارة، والإقراض الائتماني، وفي صناعة الحلويات، وفي الخياطة، وصناعة الألبسة، وعملوا نجارين وخبازين ولحامين، وفي تنظيف الأماكن العامة[35].

2. بعد التدخل الأجنبي

منذ القرن الثامن عشر بدأ التجار الأوروبيون اليهود، وخصوصًا الإيطاليين، يستوطنون حلب ودمشق، ويفتتحون أعمالًا تجارية فيها. أتاح ذلك فرص عمل كبيرة لليهود المحليين للعمل مع الأوروبيين الذين -كما ذكرنا سابقًا- كانوا يفضلون تشغيل أبناء دينهم. فعمل كثير من الشباب اليهود بداية في الترجمة والمحاسبة ومستشارين ووسطاء وعمال منازل، ومن ثم بدأ اليهود المحليون مشاركة اليهود الأوروبيين، وممارسة نشاطهم التجاري الخاص. ذلك أدى إلى نشوء نخب مالية يهودية جديدة، خصوصًا في حلب، تنافس النخب التقليدية السائدة وتستبدلها في بعض الأحيان. وكان لذلك أثره أيضًا في المجتمع اليهودي، والتعليم، إذ إن هذه النخب المالية الجديدة كانت شديدة التأثر بالفكر الأوروبي الذي حمله التجار الأوروبيون معهم.

استطاع التجار الأوروبيون الحصول على امتيازات كبرى في أراضي الدولة العثمانية نتيجة التفوق الاقتصادي والعسكري لأوروبا على الدولة العثمانية. فقد حصل التجار الأوروبيون على إعفاءات أو تخفيضات ضريبية، بينما ظل التجار المحليون يدفعون الضرائب نفسها على المنتجات والبضائع نفسها. ولم يخضع التجار الأوروبيون لقوانين الدولة العثمانية في التقاضي، إنما لقوانين بلدانهم الأم، وقد كانت القنصليات الأوروبية تنظم ذلك، وتضغط على الدولة العثمانية لإصدار قوانين ومراسيم تصب في مصلحة مواطنيها. امتدت الامتيازات الممنوحة للأوروبيين لتشمل موظفيهم وعمالهم من السكان المحليين، وبذلك تمتع التجار اليهود والمسيحيون في دمشق وحلب بامتيازات واسعة على حساب التجار المسلمين[36]. ومنذ تلك اللحظة أصبح مستقبل يهود سوريا في الغرب لا في الشرق. حاولت الدولة العثمانية سحب الامتيازات من مواطنيها غير المسلمين لتعويض خزينة الدولة من جهة، وامتصاص غضب التجار المسلمين من جهة أخرى، وساندتها في ذلك الحاخامية التقليدية التي لم تكن مرتاحة لظهور نخب مالية جديدة متأثرة بالفكر الأوروبي، إلا أن السلطة العثمانية لم تنجح في سحب الامتيازات لأنها واجهت

(32) العجلاني، ص107.

(33). Harel, p.54.

(34) العجلاني، ص322.

(35) Harel, p.54.

(36) المرجع نفسه، ص46.

ضغطًا كبيرًا من القنصليات الأوروبية من جهة، ولأن كثيرين من التجار اليهود المحليين كانوا قد حصلوا على جنسيات أوروبية، وتخلوا عن الجنسية العثمانية من جهة أخرى[37].

ولا يمكن تحديد حجم مشاركة اليهود في دمشق وحلب في النشاط المالي بدقة، لأن اليهود كانوا يخفون أعمالهم عن أعين الآخرين، وذلك لأن ثمة اعتقاد يهودي بأن الله يبارك الأعمال المخفية، ولأن جزءًا من أعمالهم كان غير مشروع. إلا أن بعض المصادر المعاصرة تشير إلى أن التجار اليهود كانوا الأغنى في دمشق، وقد هيمنوا على تجارتها الخارجية، وقد كان لليهود أربعة وعشرون مركزًا تجاريًا للتجارة مع الإنكليزيين بصورة رئيسة. شارك اليهود أيضًا في القوافل التجارية التي تسافر بين دمشق وبغداد، ومن هناك إلى إيران والهند. وشارك يهود حلب بدرجة أقل في القوافل التجارية المتجهة من مدينتهم إلى بغداد. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر تراجعت التجارة الخارجية في حسابات يهود دمشق إلى المرتبة الثانية، وحلت أعمالهم المصرفية والمالية في المرتبة الأولى، وذلك نتيجة التغييرات الاقتصادية في المنطقة، ومنها ارتفاع خطر قطاع الطرق على الطرق البرية، وتحول طرق التجارة الكبرى عن سوريا، خصوصًا بعد افتتاح قناة السويس. أما تجار حلب، فقد ظلت التجارة الخارجية مع الغرب هي القطاع الأساسي في حياتهم الاقتصادية[38].

ونتيجة غياب البنوك في دمشق وحلب وفشل البنك الذي أسسته السلطة العثمانية في بيروت عام 1856، ظهر التجار اليهود في دمشق بديلًا من النظام المصرفي الحكومي، فعملوا في الإقراض الائتماني على نطاق واسع، أقرضوا الفلاحين والشركات التجارية والحكومة، وتجاهل التجار اليهود أسعار الفائدة القانونية المحددة بـ 8 بالمئة، وفرضوا أسعار فائدة باهظة، وزادت التزامات السلطة العثمانية أمام البنوك اليهودية ازديادًا كبيرًا نتيجة حصولها على قروض كبيرة منهم، وحاولت السلطات العثمانية في دمشق التدخل لخفض قيمة الفائدة، والحصول على قروض إلزامية من التجار اليهود، إلا أن عددًا من اليهود طلب الحماية من القنصليات الأجنبية لتجنب مضايقات السلطة العثمانية[39].

خامسًا: الإدارة والحياة الدينية

1. قبل التنظيمات

التزمت الدولة العثمانية بالتقليد الإسلامي لعهد الذمة في علاقتها مع الأقليات غير المسلمة، وقد كان عهد الذمة قائمًا على نوعين من الشروط؛ شروط مستحقة وشروط مستحبة. الشروط المستحقة: أن يلتزم الذمي بعدم ذكر الإسلام بذم أو القرآن بطعن أو النبي محمد بتكذيب، ولا يزني الذمي بامرأة مسلمة، ولا يثني مسلمًا عن دينه، ولا يتعرض لمال المسلم، ولا يعين غير المسلمين بحرب على المسلمين. أما الشروط المستحبة، فهي: أن يلبس الذميون اللباس المخصص لهم الذي يميزهم من المسلمين، وألا تعلو أصوات نواقيسهم وصلواتهم، وألا يجاهروا بشرب الخمر، ولا يظهروا صلبانهم، ولا تعلوا مبانيهم على مباني المسلمين، وألا يخفوا دفن أمواتهم، وألا يجاهروا بالندب عليهم، وألا يركبوا الخيل. وكانت مخالفة أهل الذمة الشروطَ المستحقة تعد نقضًا للعهد مع المسلمين، أما مخالفتهم الشروط المستحبة، فلم تكن تعد كذلك[40].

بالنسبة إلى اليهود، فقد تمتعوا بالاستقلال الذاتي في شؤونهم الدينية مثلهم مثل باقي الأقليات غير المسلمة في أراضي الدولة العثمانية. فقد كان نظام الملّة المتبع من السلطة العثمانية قائمًا على منح الأقليات غير المسلمة الحرية في شؤونهم الدينية، بما فيها انتخاب قادتهم الدينيين من الحاخامات والقساوسة، وتحصل الأقليات غير المسلمة على الحماية في مقابل أن تدفع الجزية لخزينة الدولة العثمانية. وواجب حماية غير المسلمين يقع على المسلمين جميعهم، مجتمعًا وأفرادًا. ولكن على الجانب الآخر، فإن الحرية والاستقلال الذاتي في الشؤون الدينية لغير المسلمين لا يعني المساواة مع المسلمين، فقد كان على المسيحي واليهودي أن يلتزم بشروط عهد الذمة، ومن ثم، فقد كان

(37) المرجع نفسه، ص235-254.

(38) المرجع نفسه، ص47.

(39) Harel, p.50.

(40) نعيسة، ص6.

المسيحيون واليهود أقل شأنًا من المسلمين، ووجب عليهم أن يرتدوا لباسًا يميزهم من المسلمين، كما لم يكن لهم أن يركبوا خيلًا في المدينة إلا في حالات استثنائية جدًا مثل كبار السن والمرضى. ولم يكن للمسيحيين واليهود أن يبنوا دور عبادة جديدة، لكن كان يسمح لهم بتجديد دور العبادة القائمة وتوسيعها شرط ألا تتجاوز في طولها المساجد، ولم يكن يسمح للمسيحيين واليهود بتولي مناصب إدارية على المسلمين[41].

أما داخليًا، فقد كان اليهود ينتخبون حاخاماتهم من دون التدخل من السلطة العثمانية. ويلعب الحاخام دورًا دينيًا وروحيًا أمام المجتمع اليهودي، إضافة إلى دور إداري وتمثيلي للمجتمع اليهودي أمام السلطة العثمانية. فكان الحاخام الذي يُسمى (رئيس الطائفة) يشرف على تقسيم الضرائب على أبناء الطائفة، كما يشرف على مراسم الزواج والدفن[42]. ولم يكن الحاخامات يحصلون على رواتب من الدولة العثمانية إلا أنهم تمتعوا ببعض الامتيازات الأخرى منها الإعفاء من الضرائب. كان الحاخامات يحصلون على رواتبهم ونفقات معيشتهم من المجتمع نفسه، وكل فرد يهودي يسهم في رواتب الحاخامات يحق له المشاركة في انتخابهم. وبذلك، فإن الأسر الغنية كان لها تأثير كبير في اختيار الحاخامات. ففي دمشق مثلًا لعبت عائلتا فارحي وهراري الثريتان دورًا كبيرًا عام 1809 في اختيار الحاخام يعقوب عنتيبي رئيسًا للحاخامات على حساب المرشح حاييم ينسيم أبولاني الذي كان يكبر عنتيبي بالعمر والتعليم. إلا أن عنتيبي كان أشد فقرًا، وهذا ما يسهل التحكم فيه من النخبة المالية. أما في حلب، فإن أغلبية المجتمع اليهودي كانت تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وتسهم في دفع رواتب الحاخامات، ولذلك كان يحق لمعظم أبناء المجتمع اليهودي الحلبي المشاركة في انتخابات الحاخامات، ما منح الحاخامات مساحة كبرى من الاستقلالية في القرار عن النخب المالية[43].

وظل المجتمع اليهودي في عهد الدولة العثمانية منذ القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر منظمًا على أساس طائفي. حيث كانت الطائفة تضم أبناء المدينة نفسها أو المنطقة نفسها، وشكلت الطائفة المظلة الاجتماعية الوحيدة التي تحتكر السلطة على أبناء الطائفة. لكن منذ منتصف القرن الثامن عشر نتيجة لتغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسكنية، أصبحت العلاقات الاقتصادية أكثر أهمية من العلاقات الدينية داخل المجتمع اليهودي، فقد أصبحت العلاقة بين اليهودي وأبناء حرفته على القدر نفسه من أهمية علاقته بأبناء طائفته الدينية، وتراجعت تدريجيًا العلاقة بين الفرد وطائفته، وذلك لأنه في هذه المرحلة أصبح لدى الفرد اليهودي خيارات أخرى غير الطائفة، من مثل العمل مع التجار الأوروبيين غير الخاضعين للسلطة الحاخامية المحلية، واللجوء إلى القنصليات الأجنبية، ذلك أدى إلى إضعاف السلطة الحاخامية التقليدية كثيرًا، وخصوصًا في حلب[44].

2. بعد التنظيمات

بعد أن صدر مرسوم التنظيمات عام 1839 الذي عدّ كل مواطني الدولة العثمانية متساويي الحقوق بغض النظر عن الدين، لم يعد المسيحي واليهودي يلقبان بالذمي، ولم يَعُد يُعَدُّ كل منهما أدنى من المسلم كما كان سائدًا بحسب التراث الإسلامي. ولم يعد اليهود والمسيحيون ملزمين بدفع الجزية مقابل الحماية، كما لم يعد يلزم اليهود والمسيحيون بارتداء ملابس خاصة تميزهم من المسلمين. وصار يحق لهم شغل مناصب إدارية، وتولي شؤون المواطنين المسلمين. وفي مقابل هذه الحقوق تركت التنظيمات واجبات على اليهود والمسيحيين، فأصبحوا ملزمين بدفع الضرائب بدلًا من الجزية، ودفع بدل العسكرية أو التجنيد. وقد كانت فكرة تحول الخدمة العسكرية الإلزامية لتشمل أبناء الأقليات غير المسلمة تشكل هاجسًا لدى أبناء الأقليات، خصوصًا في وقت تنشغل فيه الدولة العثمانية بالحروب على مختلف الجهات. وصدرت قوانين تحدد طريقة تعيين الحاخامات والقساوسة لكونهم أصبحوا موظفين لدى السلطة العثمانية، ويتقاضون رواتب منها، شأنهم في ذلك شأن رجال الدين المسلمين، ما عُدَّ تدخلًا من السلطة العثمانية

(41) Harel, p.97-98.

(42) فادييفا، ص345.

(43) Harel, p.61.

(44) محمود حريتاني، **تاريخ اليهود في حلب**، ط1، (حلب: شعاع للنشر والعلوم، 2008)، ص26-27.

في شؤون الأقليات غير المسلمة، وذلك ما قوبل بالرفض، خصوصًا من النخب الاجتماعية والمالية اليهودية، لأن ذلك يهدد تأثيرهم في الحاخامات. وفي 1865 أصدرت السلطة العثمانية قانونًا ينظم تعيين الحاخامات، فاشترط على الحاخام أن يكون من تبعية الدولة العثمانية منذ الولادة، وأن يكون حسن السيرة، ولم يسبق له أن ارتكب فعلًا شنيعًا، وأن يتمتع بصحة جسدية جيدة، وأن يراوح سنه بين ثلاثين وسبعين عامًا[45].

سادسًا: التعليم

إن مسألة المحافظة على الهوية الدينية كانت من أكثر الهواجس لدى أبناء المجتمعات اليهودية، فقد كانت أكبر مخاوف اليهود بوصفهم أقلية؛ أن تهيمن ثقافة الأغلبية المجتمعية على الهوية اليهودية فتندثر مع الزمن. لذلك فإن التعليم التقليدي في المدارس اليهودية كان مبنيًا على رؤية الجماعة، ولم يكن الهدف من التعليم رفع كفاءة الفرد اليهودي وتأهيله لسوق العمل. ولأن مهمة المحافظة على قيم الجماعة وأفكارها واستمراريتها كانت تقع على عاتق الذكر، سواء في المجتمعات اليهودية أم غيرها من المجتمعات الدينية الأخرى في سوريا، فلم تتلق الإناث تعليمًا. وقد انحسر دور المرأة اليهودية في سوريا في تربية الأطفال، والاعتناء بالمنزل والزوج. وقد ساد نوعان من التعليم الأساسي لليهود في سوريا بحسب المدينة والطبقة الاقتصادية التي تنتمي إليها أسرة الطالب. في دمشق تلقى أبناء الأثرياء تعليمًا خاصًا في المنزل شمل الدين والحساب واللغات العربية والعبرية، وتلقت بعض الإناث من أبناء الطبقة الثرية تعليمًا خاصًا. أما أبناء الطبقات العامة، فتلقوا تعليمًا جماعيًا في دور تسمى (الكُتاب)، على غرار دور الكُتاب لدى المسلمين. وشُكلت دور الكُتاب من عشرة صفوف، كل صف يضم بين خمسة وعشرين وستين طالبًا، من عمر ثلاث سنوات حتى ثلاث عشرة سنة. وكان يُدرس في الكُتاب الدين والتقليد اليهودي، ولم يتلقَ أبناء الطبقة العامة في دمشق علومًا غير دينية من مثل الحساب واللغات. أما في حلب حيث الأغلبية اليهودية من أبناء الطبقة الوسطى، فقد كانت أحوال التعليم أفضل من دمشق نتيجة تقاسم أعباء التعليم على شريحة أوسع من أبناء المجتمع اليهودي. ومع توافد اليهود الأوروبيين على المدينة افتتحوا مدرستين على نفقتهم، واحدة للأطفال الأيتام، وواحدة للأطفال الفقراء. ووُزع خمسمئة طفل يهودي في حلب على خمسة عشر مدرسة، بينما في دمشق، فقد كان هناك مدرسة واحدة لخمسمئة طفل[46].

ومنذ ستينيات القرن التاسع عشر بدأ الاتحاد الإسرائيلي العالمي (الأليانس) الذي كان مقره في باريس؛ بافتتاح مدارس لليهود حول العالم، وخصوصًا في الشرق، وذلك بهدف حماية اليهود، وتزويدهم بتعليم حديث على النمط الفرنسي على غرار المدارس المسيحية التبشيرية. وشملت مناهج مدارس الأليانس علومًا دينية وغير دينية، فدرست اللغات العبرية والفرنسية والعربية كما التوراة والتلمود وفق المناهج الأوروبية، واهتمت بتدريس الأدب والرياضيات. افتتح الاتحاد العالمي الإسرائيلي مدارس في دمشق عام 1865، وفي حلب عام 1869، إلا أن هذه المدارس لاقت معارضة من الحاخامية التقليدية من جهة، ومن المدرسين في المدارس التقليدية من جهة أخرى، لأنها كانت تهدد مصدر رزقهم. ولم يرسل الأهالي أبناءهم إلى هذه المدارس إلا بعد الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالدولة العثمانية عام 1875، فلم يعد الأهالي يملكون الأموال ليرسلوا أبناءهم إلى المدارس التقليدية، ومدارس الأليانس وفرت فرص عمل لديها للمدرسين الذين كانوا يعملون في المدارس التقليدية[47].

سابعًا: تأثير الثقافة الغربية والفكر الأوروبي في حياة يهود الشرق

أثر الفكر الأوروبي في حياة يهود الشرق عمومًا منذ القرن التاسع عشر في اتجاهين؛ اتجاه حمله المسيحيون الأوروبيون، ويمثل الثقافة المسيحية الغربية، وعلى وجه الخصوص الفرنسية، وهي ثقافة معادية لليهود. وهذا

(45) العجلاني، ص45.

(46) Harel, p.78-80.

(47) المرجع نفسه، ص81.

الاتجاه خلق أثرًا سلبًا في حياة يهود الدولة العثمانية، فلم يشهد القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر سوى حوادث قليلة للغاية تعرض لها اليهود في عهد الدولة العثمانية، لكن تزايدت هذه الحوادث كثيرًا منذ مطلع القرن التاسع عشر في إثر تزايد مشاعر العداء المسيحي الأوروبي تجاه اليهود. فقد حمل التجار والدبلوماسيون المسيحيون الأوروبيون مشاعر العداء لليهود ومصادرها معهم، ونقلوها إلى مسيحيي الشرق. فانتشرت كتابات معادية لليهود في المدن العثمانية شبيهة بتلك الكتابات التي كانت تصدر في أوروبا في القرن التاسع عشر، وأصبحت الكنائس اليونانية والأرمنية تحرض أتباعها على اليهود، فازدادت الحوادث ضد اليهود في أراضي الدولة العثمانية، ولا سيما في المدن التي تسكن فيها أغلبية مسيحية. وكانت هذه الحوادث تكثر خلال عيد الفصح، إذ تنتشر شائعات عن وجود طقس يهودي يُخطَف فيه الأطفال المسيحيون لشرب دمائهم. ومن بين الحوادث الشهيرة ضد اليهود كانت مذبحة أزمير عام 1872، اعتدى فيها مسيحيون على يهود، ونكلوا بهم. وفتش المسيحيون في مدينة القسطنطينية حقائب اليهود بحثًا عن أطفال مسيحيين اختفوا في ظروف غامضة. وفي 1872 دمر المسيحيون في مدينة مرمرة المعابد اليهودية، وأطلقوا النار على السكان اليهود، ونكلوا بهم، وتدخلت السلطات العثمانية المحلية آنذاك لحماية اليهود من هجمات السكان المسيحيين[48]. أما في دمشق، فقد اتهم القنصل الفرنسي عام 1840 يهود دمشق باختطاف القسيس توما الكبوشي، وخادمه المسلم إبراهيم عمارة، وقتلهما لاستخدام دم القسيس في طقوس العبادة. على اعتبار أن الفرنسيين هم حماة الكاثوليك في الشرق وتوما الكبوشي كان كاثوليكيًا، فقد طالب الفرنسيون بعقاب قادة الطائفة اليهودية بدمشق، ونُشر الخبر في إحدى الصحف الفرنسية بأزمير، وتناقلت الصحف الأوروبية الخبر. وفي إثر ذلك أدان قادة المجتمع اليهودي في أوروبا الحادثة، ونظموا حملات شعبية ودبلوماسية لإدانة الحادثة، ودعوا حكوماتهم إلى إدانتها. وتوجه وفد من اليهود الأوروبيين للقاء المسؤولين العثمانيين الذين أصدروا فرمانًا أعلن براءة اليهود من تهمة قتل القسيس وخادمه، وأمروا بإطلاق سراح المتهمين اليهود[49].

أما الاتجاه الثاني للأثر الأوروبي في حياة اليهود في سوريا، فهو نتيجة التنوير اليهودي في أوروبا، فقد تأثر يهود أوروبا بحركات التنوير المسيحية، خصوصًا في ألمانيا، فنشأت حركات إصلاح دينية واجتماعية يهودية في أوروبا، وفي مقدمتها حركة (الهاسكالاه) منذ منتصف القرن الثامن عشر، ومدرسة (علم اليهودية) منذ بدايات القرن التاسع عشر. وسعت الحركات الإصلاحية إلى تحرير اليهود من قيود الحاخامية التقليدية ودمجهم في المجتمعات الأوروبية التي يعيشون ضمنها، ومواجهة التيارات المسيحية الأوروبية المعادية لليهود. ودخلت (الهاسكالاه) في مواجهة مع الحاخامية التقليدية انتهت بعلمنة معظم أبناء الطبقة اليهودية البورجوازية في كثير من المدن الأوروبية[50]. أما مفكرو مدرسة علم اليهودية، فقد تأثروا تأثرًا كبيرًا بالحركات القومية المتصاعدة في أوروبا، فحاولت هذه المدرسة تغيير معنى اليهودية من هوية دينية إلى هوية ثقافية قومية تجمع بين كل اليهود في العالم[51]. ولأن حركة الهاسكالاه أثرت تأثيرًا خاصًا في أبناء الطبقة البورجوازية اليهودية، فقد أسهمت في علمنة فكر أبنائها، وابتعادهم عن الحاخامية التقليدية، ثم جاءت مدرسة علم اليهودية، فدفعت المتنورين من اليهود -وخصوصًا من أبناء المدن والطبقة البورجوازية- إلى التخلي عن اليهودية بوصفها محض تعاليم دينية، والتفكير فيها بوصفها هوية قومية تجمع بين كل يهود العالم. تركت هذه المتغيرات في الفكر اليهودي الأوروبي أثرًا كبيرًا في التجار اليهود الأوروبيين من أبناء الطبقة البورجوازية الذين توافدوا إلى الشرق، فحملوا معهم هذه المتغيرات الفكرية عن اليهودية، وتعاملوا بها مع اليهود المحليين في سوريا، فأثروا فيهم.

وتمثل حادثة دمشق عام 1840 مثالًا عمليًا للاتجاهين كليهما في التأثير الأوروبي في حياة يهود سوريا. فقد وقعت هذه الحادثة في زمن كانت تتأزم فيه العلاقات بين فرنسا وبريطانيا بسبب صراعهما على النفوذ في أراضي الدولة

(48) أتنجر، 208-209.

(49) المرجع نفسه، ص214.

(50) Shamuel Feiner , *The Jewish Enlightenment* , Chaya Naor (Trans.), (Philadelphia : University of Pennsylvania Press , 2004), p .294.

(51) Ismar Schorsch, *From Text to Context: The Turn to History In Modern Judaism,* (Hanover, NH: University Press of New England for Brandeis University Press, 1994), 205.

العثمانية؛ فرنسا التي تدعي حماية المسيحيين الكاثوليك في أراضي الدولة العثمانية، وبريطانيا التي تدعي حماية اليهود، لذلك، فإن هذه الحادثة سريعًا ما اتخذت بعدًا دوليًا. ويظهر أثر اتجاهي الفكر الأوروبي معًا في يهود سوريا من خلال حادثة دمشق التي يتبدى من خلالها الموقف العدائي للقنصل الفرنسي، واستحضاره خرافات معاداة اليهود في أوروبا إلى الشرق. أما الأثر الإيجابي للفكر الأوروبي في حياة اليهود، فيتجلى بالفكر اليهودي القومي الذي استدعى تعاطف يهود أوروبيين من دول مختلفة مع المتهمين اليهود السوريين.

ثامنًا: خاتمة

يمكن تلخيص التحولات البنيوية التي شهدتها المجتمعات اليهودية في القرن التاسع عشر، خصوصًا في دمشق وحلب، بالآتي:

1. إن مصير يهود الدولة العثمانية، بمن فيهم يهود سوريا، منذ القرن التاسع عشر لم يعد يُقرر في الشرق، إنما في الغرب. وذلك نتيجة تفوق الدول الأوروبية على الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر، وهذا أدى إلى تدخل هذه الدول في شؤونها، لتحصيل امتيازات لتجارها على حساب التجار المحليين بدايةً، ثم ما لبثت هذه الدول التدخل أكثر فأكثر في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية الأقليات غير المسلمة ، فامتدت امتيازات رعايا الدول الأوروبية لتشمل رعايا الدولة العثمانية من أبناء الأقليات غير المسلمة. وهذا كان تحولًا كبيرًا في حياة يهود سوريا، إذ إنهم نظريًا كانوا خاضعين لسلطة الدولة العثمانية، لكن عمليًا لم يعودوا ملتزمين التزامًا صارمًا بقوانينها بعد أن أصبحوا محميين من القنصليات الأجنبية.

2. افتتاح التجار اليهود الأوروبيين مراكز تجارية، وخصوصًا في حلب، أدى إلى خلق فرص عمل جديدة أمام الشباب اليهود من أبناء الطبقة الفقيرة والمتوسطة الذين عملوا في البداية لدى التجار الأوروبيين، ثم بدأ هؤلاء الشباب بمشاركة التجار الأوروبيين، وافتتاح أعمالهم الخاصة. وهذا أدى إلى نشوء نخب مالية جديدة في المجتمعات اليهودية السورية تنافس النخب التقليدية، وتستبدلها أحيانًا. هذا أدى أيضًا إلى تحولات اجتماعية وإدارية داخلية ضمن المجتمعات اليهودية نفسها، فبحسب نظام الذمة الإسلامي الذي كان سائدًا قبل التنظيمات العثمانية، فإن السلطة العثمانية لا تتدخل في تعيين الحاخامات، وهم ليسوا موظفين لدى السلطة العثمانية، ولا يتلقون رواتبًا منها. ويعتمد الحاخامات في معيشتهم على أبناء الطائفة اليهودية، وخصوصًا من الأغنياء، وكان اليهود ينتخبون حاخاماتهم على أساس أن من يشارك في دفع رواتب الحاخامات يحق له المشاركة في انتخابهم. وقد استطاعت النخب المالية اليهودية التقليدية -خصوصًا في دمشق- التلاعب بالحاخامات قرونًا عبر انتخاب من يخدم مصالحهم، ومن ثم، فإن ظهور نخب مالية جديدة من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة من المتأثرين بالفكر اليهودي الأوروبي أدى إلى وصول نخب حاخامية جديدة إلى السلطة الدينية تتوافق آراؤهم إلى حد كبير مع ناخبيهم الجدد من النخب المالية الجديدة، وهنا يكمن تحول اجتماعي وإداري داخلي مهم.

3. شهدت سوريا منذ القرن التاسع عشر تنوعًا إثنيًا في المجتمعات اليهودية، تمثل في التجار اليهود الأوروبيين الذين استوطنوا في حلب بصورة رئيسة، وبعضهم في دمشق. ثم إن افتتاح اليهود الأوروبيين مراكز تجارية في حلب، ورغبة اليهود في تشغيل أبناء دينهم خصوصًا شجعا يهودًا من أوروبا الشرقية، خصوصًا روسيا وبولندا، على الهجرة إلى حلب بحثًا عن عمل. ولم يكن الاقتصاد هو السبب الوحيد وراء هجرة يهود آخرين إلى سوريا، إنما كان ثمة أسباب أمنية أيضًا. ففي منتصف القرن التاسع عشر لجأت عشرات العائلات اليهودية من الجزائر إلى دمشق هربًا من جنود الاحتلال الفرنسي المحملين بثقافة دينية معادية لليهود.

4. شعور الدولة العثمانية بالضعف أمام الدول الأوروبية، ما دفعها إلى إصدار مراسيم التنظيمات التي كان الهدف منها الانتقال من الامبراطورية بشكلها القديم إلى الدولة القومية الحديثة على غرار الدول الأوروبية. وقد أسهمت التنظيمات في اعتبار كل رعايا الدولة من مسلمين وغير مسلمين مواطنين متساويي الحقوق والواجبات. هذا التحول الخارجي في شكل العلاقة بين السلطة العثمانية

والأقليات غير المسلمة، بما فيها اليهود، أسهم إسهامًا كبيرًا في التحول في حياة اليهود اجتماعيًا في علاقتهم مع السلطة من جهة، وعلاقاتهم مع المجتمعات المسلمة وغير المسلمة من جهة أخرى.

5. إن افتتاح الاتحاد الإسرائيلي العالمي لمدارس الأليانس في دمشق وحلب كان له تأثير كبير في التحول الفكري لدى أبناء المجتمعات اليهودية عمومًا. فقد استبدلت هذه المدارس بالمناهج الفرنسية الحديثة المدارس اليهودية الدينية التقليدية. وفتحت مدارس الأليانس أبوابها للأطفال اليهود من أبناء كل الطبقات الفقيرة والمتوسطة والغنية أيضًا، ومن ثم، فإن تعليم المواد غير الدينية من مثل اللغات الأجنبية والحساب لم يعد حكرًا على أبناء الطبقة الغنية الذين كانوا يتلقون تعليمًا خاصًا في المنازل. واهتمت مدارس الأليانس بتعليم الإناث والذكور، وهذا ما أدى ليس إلى التحول الفكري في حياة اليهود فحسب، إنما إلى التحول من دور المرأة اليهودية التقليدي في تربية الأطفال والاهتمام بالزوج، إلى أدوار اجتماعية جديدة أيضًا.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. أتنجر. صموئيل، **اليهود في البلدان الإسلامية**، جمال الرفاعي (مترجمًا)، ط1، (الكويت: عالم المعرفة، 1995).

2. العجلاني. شمس الدين، **يهود دمشق الشام**، ط2، (دمشق: مكتبة العلبي، 2008).

3. العلبي. أكرم حسن، **يهود الشام في العصر العثماني**، ط1، (دمشق: وزارة الثقافة، 2011).

4. المبيض. سامي، **نكبة نصارى الشام أهل ذمة السلطة و انتفاضة 1860**، ط1، (بيروت/ لبنان: دار رياض الريس للنشر، 2021).

5. حريتاني. محمود، **تاريخ اليهود في حلب**، ط1، (حلب: شعاع للنشر والعلوم، 2008).

6. حوراني وخوري وويلسون، **الشرق الأوسط الحديث**، أسعد صقر (مترجمًا)، ط1، (القاهرة: مركز مدارات للأبحاث والنشر، 2016).

7. فادييفا. إيرما، **اليهود في الإمبراطورية العثمانية**، أنور إبراهيم (مترجمًا)، ط1، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2023).

8. كوثراني. وجيه، "التنظيمات العثمانية والدستور: بواكير الفكر الدستوري نصًا وتطبيقًا ومفهومًا"، ع: 3، **مجلة تبين**، (2013).

9. نعيسة. يوسف، **يهود دمشق**، ط1، (دمشق: دار المعرفة، 1988).

بلغة أجنبية

1. Feiner. Sahmuel, *The Jewish Enlightenment* , Chaya Naor (Trans.), (Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 2004).

2. Harel. Yaron, *Syrian Jewry in Transition, 1840-1880*, Dena Ordan (Trans), (Liverpool: Liverpool University Press, 2010).

3. Schorsch. Ismar, *From Text to Context: The Turn to History In Modern Judaism*, (Hanover, NH : University Press of New England for Brandeis University Press , 1994).

4. Shohat. Ella, "The Invention of The Mizrahim", **Journal of Palestine Studies,** Vol. 29, (Autumn, 1999).